

## المحاضرة الثالثة: جمالية تقبل الخطاب الشعري المعاصر

من الشروط الواجب توفرها في منشئ الخطاب لأدبي بعامته وقارئه بخاصة مدى قدرتهما على السمو بالنص إلى مستوى يضمن له الاستمرارية؛ التي تأتي أن تقف به عند حدوده الظرفية، فتمحي حينئذ معالمه بمجرد وضع أولى خطواته في سوق الزواج وحقل القراءات؛ لذا وإثباتنا لفرضيات البحث فإن وجود النص السير ذاتي يستمد هويته انطلاقاً من كونه منجز لغوي بدوالم رمزية يثري متلقيه مضامينه قراءة وتأويلاً وهو ما يجعله بمنأى عن السلبية والقصور، هذا المتلقي يفترض أن "يملك أدوات القراءة ويتفاعل مع النص من منطلق معرفته باللغة التي تشكل بها هذا النص"<sup>(1)</sup>.

فالأمر يتجاوز حدود تصوير الشاعر المعاصر لذاته، إلى إمكانية التأثير في القارئ وإشراكه في عملية بناء الأحداث ضمن نسق فني خاص، حتى يكون طرفاً في إعادة تشكيل الصورة الواقعية الغائبة؛ تلك الصورة التي كانت مناط هاجس أرق المضاجع فاستحال عنواناً لاعتراقات كاتب يتصور، حين ينتج نصه، "قارئاً معيناً وفي خلفيته نصوص عديدة، يحولها ويبنيها في إنتاجيته الخاصة، من خلال التفاعل البنائي على مستوييه الداخلي (الكتابة) والخارجي (القراءة)"<sup>(2)</sup>.

لذا، أضى للقارئ دور يضطلع به، وحالات تلقى للنص الأدبي يصنفها عبد الله الغدامي إلى ثلاث: **أولها؛ حالة الإقناع** ذي التوصليل العقلي، وكيونة النص فيها منطقية حيث يرتكز في علاقاته الداخلية وفي تواصله مع القارئ على تحديد المعنى الذي يسخر النص لإيصاله وتحقيقه، بعبارة أخرى هو رسالة ذهنية غايتها الإقناع كالخطابة مثلاً **وثانيها؛ حالة الانفعال التلقائي** المعتمدة على التعبير الوجداني، ويكون مرتكز النص صناعة اللغة فيه، ومثال ذلك الشعر الغنائي، وقد يتمازج بحالة الإقناع وذلك في شعر الحكمة والشعر التعليمي، و **ثالثها حالة الانفعال العقلي** التي تضمن للنص شرط وجوده

(1) سيزا قاسم: القارئ والنص (العلامة والدلالة)، ص 127.

(2) سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي (النص والسياق)، ص 76.

الجمالي، في سياق نصي إشاري حرّ الدلالة، أبعد ما يكون عن الإنشائية التلقائية النابعة من الوجدان الفطري للمبدع<sup>(1)</sup>.

هكذا، وانطلاقاً من هذا التصنيف، تكون عملية القراءة بداية تحقق نوع من التلقي الجديد، والاستجابات المتنوعة بتنوع أجناس النصوص وانتماءاتها، والباحث إذ يتحرى الكاتب والمتلقي فإنه يعتقد، ولو اجتهداً منه، أن ذلك يمت بصلة إلى ترسبات ثقافية وأخرى حضارية، فرضت نمطاً من التفاعلات في تركيبية الفعل الإبداعي ونوعاً من القراءة الواعية والمركبة بمستوياتها المتعددة، منها ما هو حسي يعتمد على الحواس ويطلق عليه مستوى الإدراك، ومنها ما هو ذهني يهدف إلى التعرف على الطبيعة السيميوطيقية للأشياء المدركة بوصفها علامة تنتمي إلى نظام سيميوطيقي وصولاً إلى محاولة فك شفرة الشيء نفسه وتفسيره<sup>(2)</sup>. إنَّ السيرة الذاتية تروم العبور، بما لها من خصائص، إلى ما يحقق جمالياتها وشروطها الميثاقية والغائية في علاقتها بالقارئ؛ إذ إنها تتأسس فناً على تجسيد (الحياتي) وما يحفل به من أحداث وشخصيات، بالدخول في تفاعل خاص مع تجارب هذا القارئ الذي يمكن أن يرى فيها أنموذجاً للاقتداء أو الاستمتاع.

تغدو القصيدة المعاصرة إذن "تجربة جمالية (Experience esthétique) تتشكل في الأثر الفني؛ بما هو العالم الذي يلقي بنوره على الذات، فترى الأشياء وقد حاصرها هذا الضوء مختلفة كأنها ولدت لتوها، ليغدو الفن معرفة وجودية، تكتشف فيها الذات موضوعها"<sup>(3)</sup> فالجمالية تتخذ من ملفوظات النص اللسانية سبيلاً لولوج عوالمه ومحاورته، بالبحث عمّا تمتلكه الذات المتلقية للنص من قدرة على إعادة إنتاج المعنى مستعينة بالفهم والإدراك، كأن القارئ يرى نفسه في كتابات غيره مثلما فعل إدوارد سعيد حين رأى في تفصيل مجريات حياته وسيلة "أفسر بها لنفسي وللقارئ مدى ارتباط زمن هذا الكتاب بزمن مرضي، بحقبته وطلعاته وزلاته وتقلباته كافة، فمع تزايد ضعفي وتكاثر الالتهايات وطفرات الآثار الجانبية للمرض، ازداد اتكالي على هذا الكتاب وسيلة أبتني بها لنفسي شيئاً

(1) ينظر: عبد الله الغدامي: تشريح النص، ص51.

(2) ينظر: سيزا قاسم: القارئ والنص (العلامة والدلالة)، ص193.

(3) عبد الغني بارة: الهرمينوطيقا والفلسفة (نحو مشروع عقل تأويلي)، ص285.

ما بواسطة النثر" (1). فالنص الشعري، بإشراكه القارئ، نص حوارى قائم على تعدد في المعنى وليس ممارسة لسلطة قهرية على فكر القارئ وحريته، بل هو قائم على محاولة إحداث الأثر في نفسية المتلقي، وما له من خبرة جمالية هي، في الأصل، "خبرة ذوات محايدة لأنها خبرة محكومة ببنية الموضوع الجمالي؛ الذي ينبثق من العمل نفسه، ويكون نتاجا لقصد فنان تلقتي معه هذه الذوات" (2) في انتمائها الأسري والاجتماعي، لتظل مرافقة له في مشوار حياته وحياته الفنية.

هكذا، يؤسس النص الشعري نمطاً خاصاً من أنماط التذوق الفني، يكون فيها القارئ مشعباً بملكة فطرية وأخرى مكتسبة، تساعدانه على إنتاج دلالة النصوص التي لا تتجه شكلاً ومضموناً إلى الخواء، كما أنها لم تأت من فراغ، والقراءة الأدبية لم تعد فعالية سلبية لا تتجاوز التلقي الآلي من القارئ، وكأنما هو وعاء معدني لا دور له سوى استيعاب ما يصب فيه، ولذلك، يضيف عبد الله الغدامي، فإنه ليس مجرد متلق فحسب، "ولكنه يمثل حصيلة ثقافية واجتماعية ونفسية تتلاقى مع كاتب هو مثلها في مزاج تكوينه الحضاري الشمولي والنص هو المتلقي لهاتين الثقافتين" (3). إن القارئ، انطلاقاً من هذه المحصلة، أكثر اعتماداً على ترسباته المعرفية في تعامله مع النص ومحاولة فهمه، حيث يصبح هذا الفهم "عملية بناء المعنى وإنتاجه، وليس الكشف عنه أو الانتهاء إليه، وبذلك يعدّ المحمول اللساني مؤثراً واحداً من مؤثرات الفهم، لا بد من تغذيته بمرجعيات ذاتية [...] من لدن المتلقي" (4). فالنص المكتوب، وقبل أن يكون كيانه لغوياً، هو محفز على ممارسة فعل القراءة، يُستدعى فيه القارئ للمشاركة الفعلية في بناء النص، والإسهام في عملية تكوينه، فلم يعد مجرد متلقٍ سلبي لقيامه بنشاط ذهني مزدوج يتلقى اقتراحات المؤلف، ثم يعيد بناءها من جديد ليكتشف نصه الخاص (5)؛ هذا الذي يبنى بمعناه المنتج عن مقصديات الكاتب وميولاته الأيديولوجية.

(1) إدوارد سعيد: خارج المكان، ص284.

(2) سعيد توفيق: الخبرة الجمالية (دراسة في فلسفة الجمال الظاهرانية)، ص139.

(3) عبد الله الغدامي: الخطيئة والتكفير، ص81.

(4) بشرى موسى صالح: نظرية التلقي - أصول وتطبيقات، ص43.

(5) ينظر: حميد لحميداني: القراءة وتوليد الدلالة، ص13.

ويسمح ما توافر في هذا المضمار من قرائن نصية معلنة أو مضمرة لمتلقي النص الشعري المعاصر من تكييف استجابته له، مكونا أفق توقع يمكنه كلما تقدمت به القراءة أن يمتد أو يعدّل أو يوجّه وجهة أخرى، وفي هذه المرحلة لا يستطيع النتاج الأدبي الاستمرار في التأثير إلا إذا استقبله القراء على نحو دائم، ومتجدد حينها يتحول إلى موضوع تجربة أدبية، فالأمر، إذاً، يتعلق بإدراك حسي موجه؛ يتم وفق صيرورة تطابق نوايا معينة وتحركها إشارات دالة، وحين يبلغ النص مستوى التأويل؛ فإنه يفترض دائماً سياق التجربة السابقة الذي يندرج فيه الإدراك الجمالي<sup>(1)</sup>.

ومن هذه المحطة، يغدو تلقي النص الشعري، بمفهومه الجمالي، عملية ذات وجهين؛ أحدهما الأثر الذي يحدثه العمل الأدبي في القارئ، بوصفه عملاً إبداعياً له ميزاته الخاصة، والآخر كيفية استقبال القارئ لهذا العمل أو استجابته له بطرق مختلفة حيث يمكنه الاكتفاء باستهلاكه أو نقده أو الإعجاب به أو رفضه أو التلذذ بشكله أو تأويل مضمونه<sup>(2)</sup>، وهي طرق تمنح العمل الأدبي معانٍ متجددة باستمرار بتضافر أفق التوقع المفترض. هكذا تمثل الحياة مادة تستنفر قدرات الكاتب الفنية في التعبير عن ذاته، التي تقتضي من منظور واقعي حدّاً أدنى من الحرية، حيث تعدّ شرطاً ضرورياً لميلاد المنتج الإبداعي وتطوره، وغيابها يحيل كتابة الذات إلى عملية يشوبها الصراع والمواجهة، لما لقول الحقيقة من أثر تتعالق فيه أطراف كثيرة.

إنّ نوعية العلاقة التي تربط القارئ بالنص "تتحدد من خلال وعي الذات بنفسها ووعياها بالنص الذي تتلقاه؛ فالذات المدركة من جانب والنص المدرك من جانب آخر يتم التفاعل بينهما طبقاً للتصورات العامة السائدة"<sup>(3)</sup>، ومنها تستند القراءة إلى عاملين أساسيين هما: إدراك تجربة الكاتب الحياتية، ووعي هذه التجربة إبداعاً وكتابة، بتحويل التفاصيل الجزئية والحقائق الواقعية والمعلومات المطروحة والمعرفة المتنوعة والخبرات الحياتية

(1) ينظر: هانس روبرت ياوس: جمالية التلقي، ص45.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص101.

(3) سيزا قاسم: القارئ والنص (العلامة والدلالة)، ص107.

والاجتماعية، إلى قضية تحرك دواعي الإبداع لدى الكاتب الذي يقلقه أمر إحداث تغيير في واقعه الاجتماعي<sup>(1)</sup>.

والوعي من وجهة نظر أخرى مسألة أساسية و"سمة ذات مردود كبير على من يتصف بها؛ لأنها تمكنه من معرفة الحقائق والأمور والإلمام بها، ورصد العلاقات الانسانية المتغيرة، وتقويم أفعال الناس والظواهر الاجتماعية"<sup>(2)</sup>. فالقارئ بما يملكه من وعي شريك في الدفع بالنص الشعري إلى ما يحفظ له بقاءه، شاهدا على حياة فرد تميز بإبداعه وتجربته وعمق نظرته، ولا يسعه أحيانا أن يوجه دعوة إلى هذا القارئ؛ كي يشاركه في تأملاته وحركاته وسكناته. لقد صار وعي إشكاليات الوجود والهوية واللغة والمجتمع لازمة ضرورية كي يتحقق الهدف الأسمى للكتابة وإلا كان مآلها الزوال. فالأمر موكول إذا للمدى الذي يمكن أن يقطعه النص الشعري بأدواره التي يؤديها لأجل الوصول إلى تجسيد مهامه المنوطة به.

#### المصادر التمثيلية: يمكن التمثيل لفحوى المضمون النظري بالمصادر الآتية:

صلاح عبد الصبور، ديوان الناس في بلادي  
محمد الماغوط: الأعمال الشعرية الكاملة  
أدونيس: أغاني مهيار الدمشقي  
فاروق شوشة: الأعمال الشعرية

(1) ينظر: عبد الله رضوان: البنى السردية، د/ ط، دار الكندي للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، 2002، ص511.

(2) مرشد أحمد: أنسنة المكان في روايات عيد الرحمان منيف، د/ ط، دار الوفاء، الاسكندرية، مصر، 2002، ص13.